# المبحث الأوَّل

## الدلالة والتكامل الصوتيُّ

### المطلب الأوَّل: البناء الصوتيُّ ودلالة الظاهر:

دلالة الظاهر، أي: "ظاهر النصِّ" وهو ما يتبادر منه إلى الذهن من المعاني، فهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، إذ نجد الكلمة الواحدة لها أكثر من معنى يتحدَّد كلٌّ منها في السياق الذي ترد فيه، وتركيب الكلام يفيد معنى على وجه ومعنى آخر على وجه آخر(١)، فلفظ "القرية" مثلاً يراد به القوم تارة، ومساكن القوم تارة أخرى. فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾(٢).

ومن الثاني: قوله تعالى عن الملائكة ضيف إبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾(٣).

وتقول: "صنعت هذا بيدي"، فلا تكون اليد كاليد في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾(٤)؛ لأنَّ اليد في المثال أضيفت إلى المخلوق فتكون مناسبة له، وفي الآية أضيفت إلى الخالق سبحانه وتعالى فتكون لائقة به، فلا أحد سليم الفطرة صريح العقل يعتقد أنَّ يد الخالق كيد المخلوق، أو بالعكس.

إذا تقرر هذا فظاهر نصوص الصفات ما يتبادر منها إلى الذهن من المعاني(٥).

---

(١) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء: ٥٨.

(٣) سورة العنكبوت: ٣١.

(٤) سورة ص: ٧٥.

(٥) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٣٦-٣٧.

### ❖ موقف الفرق من الدلالة الصوتيَّة:

لَّما كان القرآن الكريم كتاب تعبُّد وتشريع، ووحي متزَّل من السماء وليس كغيره من الكلام، كان الواجب على المسلمين أن بالإيمان والتسليم والصديق، والرضا بكلِّ ما جاء به، لكنَّ كثيراً من المسلمين تفرَّق عن الطريق القويم، متَّبعين أهواء مختلفة، ونحل متعدِّدة جعلوها حاكمة على كتاب الله جلَّ وعلا، فذهبوا يبدِّلون معاني كلمات من القرآن الكريم، ويحرِّفون أخرى بحجج، ودعاوى لم يقم عليها دليل من الشرع، أو العلم الحقيقيّ، ولا من العقل السليم المنضبط، وسمُّوا تبديلهم هذا تأويلا، فراحوا منطلقين في أخطائهم هذه تحت مسمَّى **"التأويل" ليوهموا الناس وليلبسوا عليهم لما للتأويل من سعة في دلالته فهو ليس كمصطلح "التفسير"**.

فمصطلح التفسير يراد به: العِلمُ الذي يُعرَف به فَهْم كتاب الله المنـــزل على نبيِّه محمَّد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكمه، واستمداد ذلك من عِلْم اللغة، والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفِقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسِخ والمنسوخ[1].

أو: هو علمُ نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكِّيِّها ومدنيِّها، ومُحْكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصِّها وعامِّها، ومطلقها ومقيَّدها، ومُجْمَلها ومُفسَّرها، وحلالها وحرامها، ووعْدِها ووعيدها، وأمْرها ونَهْيها، وعِبَرها وأمثالها.

وهذان التعريفان هما أشمل ما عرِّف به التفسير، وما عداهما فهو يدخل فيهما[2].

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١/١٣.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/٥٤٣-٥٤٤.

**وأمَّا مصطلح**، فهو عند السَّلف له معنيان:

**أحدهما**: تفسير الكلام وبيان معناه؛ سواء وافَق ظاهره أو خَالَفَه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفَين، وهذا هو الشائعُ عند المتقدِّمين من علماء التفسير، كالإمام ابن جرير وغيره [1].

**وأما التأويل عند المتأخِّرين**، فهو صَرْف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يَقْتَرِن به، وعلى هذا فالمتأوِّل مطالَب بأمرين:

**الأمر الأول**: أن يبيِّن احتمالَ اللفْظ للمعنى الذي حمَلَه عليه، وادَّعى أنه المراد.

**الأمر الثاني**: أن يبيِّن الدليلَ الذي أوجب صرْفَ اللفْظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص[2].

وما كان من التأويل الذي هو صرف الكلام عن دلالته الصوتيَّة والمعجميَّة، لا يصار إليه مع إمكان حمْل الشيء على ظاهِره، لاسيما إذا لم يقمْ دليل على خلافه، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى؛ إذِ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنَّما يكون لمرجِّح[3].

❖ **أقسام الفرق** ظاهر الكلام والدلالة الصوتيَّة:

انقسم الناس في هذا الأمر إلى ثلاثة فرق:

١- أهل السنَّة والجماعة: وهم من جعلوا الظاهر المتبادر منها معنى حقّاً يليق بالله عزَّ وجلَّ، وأبقوا دلالتها على ذلك، وهؤلاء هم السلف الذين

---

(١) مجاز القرآن: ٨٦/١، والإتقان في علوم القرآن: ١٦٧/٤.

(٢) التفسير والمفسرون: ١٩/١.

(٣) البحر المحيط: ٢٥٨/٢.

اجتمعوا على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، والذين لا يَصْدُقُ لقب أهل السنة والجماعة إلا عليهم، وقد أجمعوا على ذلك، كما نقله ابن عبد البر فقال: «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على معناها الظاهر.

٢- من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله. وهم أهل التعطيل، سواء كان تعطيلهم عاماً في الأسماء والصفات، أم خاصاً فيهما، أو في أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معان عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطرابا كثيراً، وسموا ذلك تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف، ومذهب هؤلاء باطل من وجوه:

أ- إنَّه جناية على النصوص، وتعطيل لها عن المراد بها، فكيف يكون المراد بها التشبيه وقد قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]، ونهى عباده أن يضربوا له الأمثال، أو يجعلوا له أنداداً فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3]. وكلام الله تعالى كلُّه حق، يصدِّق بعضه بعضاً ولا يتناقض[4].

ب- إنَّ العقل دلَّ على مباينة الخالق للمخلوق في الذات والصفات، فكيف يحكم بدلالة النصوص على التشابه بينهما؟.

---

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) سورة النحل: ٧٤.

(٣) سورة البقرة: ٢٢.

(٤) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٣٩-٤١.

ت- إنَّ هذا المفهوم الذي فهمه المشبه من النصوص مخالف لما فهمه السلف منها، فيكون باطلاً.

٣- المعطِّلة: وهم من جعلوا في بادئ الأمر المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه من المعنى اللائق بالله. فعطَّلوا النصوص عن معانيها؛ لذلك سُمُّوا أهل التعطيل، ومنهم من كان تعطيله عاماً في الأسماء والصفات، ومنهم من كان تعطيله خاصّاً فيهما، أو في أحدهما. فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معاني عينوها بعقولهم، واضطربوا في تعيينها اضطراباً كثيراً، وسَمَّوا ذلك تأويلاً وهو في الحقيقة تحريف؛ لأنَّه غيَّر معنى اللفظ عمَّا هو معلوم له في اللغة العربيَّة. ومذهبهم باطل من وجوه:

أ- إنَّه جناية على النصوص، حيث جعلوها دالة على معنى باطل غير لائق بالله عزَّ وجلَّ ولا مراد له.

ب- إنَّه صرف لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ عن ظاهره. والله تعالى خاطب الناس بلسان عربيٍّ مبين ليعقلوا الكلام ويفهموه على ما يقتضيه هذا اللسان العربيُّ، والنبيُّ ﷺ خاطبهم بأفصح لسان البشر، فوجب حمل كلام الله ورسوله ﷺ على ظاهره المفهوم بذلك اللسان العربيِّ، غير أنَّه يجب أنْ يصان عن التكييف والتمثيل في حقِّ الله عزَّ وجلَّ.

ت- إنَّ صرف كلام الله ورسوله ﷺ عن ظاهره إلى معنى يخالفه قول على الله بلا علم، وهو محرم لقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[1].

(١) سورة الأعراف: ٣٣.

### ❖ بطلان منهج تعطيل ظاهر الكلام عن دلالته:

إنَّ صرف نصوص الصفات عن ظاهرها مخالف لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها، فيكون باطلاً، لأنَّ الحقَّ بلا ريب فيما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابه وسلف الأمة وأئمتها.

ومن لوازم منهج التعطيل: أنَّ النبيَّ ﷺ وخلفاءه الراشدين وأصحابه وسلف الأمَّة وأئمَّتها ﷺ أجمعين كانوا قاصرين لجهلهم بذلك، وعجزهم عن معرفته، أو مقصرين في معرفة وتبيين ما يجب لله تعالى من الصفات، أو يمتنع عليه، أو يجوز. إذ لم يرد عنهم حرف واحد فيما ذهب إليه أهل التعطيل في صفات الله تعالى وسمّوه تأويلاً، لعدم بيانهم للأمة. وكلا الأمرين باطل.

ثمَّ إنَّ من أهل التعطيل من طرد قاعدته في جميع الصفات، أو تعدى إلى الأسماء أيضاً. ومنهم من تناقض فأثبت بعض الصفات دون بعض، كالأشعرية والماتريدية، أثبتوا ما أثبتوه بحجَّة أنَّ العقل يدلُّ عليه، ونفوا ما نفوه بحجَّة أنَّ العقل ينفيه أو لا يدلُّ عليه.

وبهذا تبين بطلان مذهب أهل التعطيل، سواء أكان تعطيلاً عاما أم خاصاً.

وبه علم أنَّ طريق التعطيل الخاص -تعطيل الأشاعرة والماتريدية- في أسماء الله وصفاته وما احتجوا به لذلك لا تندفع به شبه المعتزلة والجهمية، وذلك من وجهين:

١- إنَّه طريق مبتدع لم يكن عليه النبيُّ ﷺ ولا سلف الأمَّة وأئمَّتها، والبدعة لا تدفع بالبدعة، وإنَّما تدفع بالسنَّة.

٢- إنَّ أصحاب التعطيل العامّ -المعتزلة والجهمية- يمكنهم أنْ يحتجُّوا لما نفوه على أصحاب التعطيل الخاص -الأشاعرة والماتريدية- بمثل ما احتجَّ به

أصحاب التعطيل الخاص -تعطيل الأشاعرة والماتريدية- أنفسهم لما نفوه على أهل السنة، فيقولون: لقد أبحتم لأنفسكم نفي ما نفيتم من الصفات بما زعمتموه دليلاً عقليّاً، وأوَّلتم دليله السمعيَّ، فلماذا تحرِّمون علينا نفي ما نفيناه بما نراه دليلاً عقليّاً، ونؤوِّل دليله السمعي؟ فلنا عقول كما أنَّ لكم عقولاً، فإن كانت عقولنا خاطئة فكيف كانت عقولكم صائبة؟ وإنْ كانت عقولكم صائبة فكيف كانت عقولنا خاطئة؟ وليس لكم حجة في الإنكار علينا سوى مجرِّد التحكُّم واتباع الهوى.

وهذه حجة دامغة، وإلزام صحيح من الجهمية والمعتزلة للأشعريَّة والماتريديَّة، ولا مدفع لذلك ولا محيص عنه، إلا بالرجوع لمذهب السلف الذين يطردون هذا الباب، ويثبون لله تعالى من الأسماء والصفات ما أثبته لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ إثباتاً لا تمثيل فيه ولا تكييف، وتنـــزيها لا تعطيل فيه ولا تحريف، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1][2].

والعجيب أنَّ هؤلاء بعد كلِّ ذلك التحريف والتعطيل يعودوا فيثبتوا معنى ويقولون هو معنى يليق بالله! فيالله العجب! كيف أنَّهم انتهوا إلى ما بدأ به أهل السنَّة والجماعة بأنَّ صفات الله سبحانه وتعالى تليق به، وهذا بعد أن حرَّفوا وبدَّلوا المعنى. فقالوا في الاستواء: هو استيلاء متناسين «أنَّ تفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير مرذول؛ إذ القائل به لا يسعه أنْ يقول كاستيلائنا، بل لابدَّ أنْ يقول: هو استيلاء لائق به عزَّ وجلَّ. فليقل من أوَّل الأمر هو

---

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: ٤٢-٤٨.

استواء لائق به جلَّ وعلا»[1]، ولو أنَّهم قالوا ابتداء: استواء يليق بالله لعلموا وسلموا وغنموا، وكذلك قالوا في الرحمة وغيرها يقولون بعد أن يعطوها معنى غير معناها المعهود في اللغة العربيَّة: يليق بالله، ولو أنَّهم أثبتوا المعنى الصحيح وقالوا: رحمة تليق بالله ليست كرحمة المخلوق لعلموا وسلموا وغنموا.

ولا يفهم ممَّا تقدَّم أنَّنا نغضُّ من منـــزلة أحد العلماء، أو نتطاول عليه، بل منـــزلته عالية محفوظة، وقدرهم في قلوبنا كبير، وإنَّما أردنا أنْ نبيِّن الحقَّ ونعتذر عمَّن مسَّ عمله خطأ، أو زلل مع علمنا بسلامة نيَّاتهم، وصفاء قلوبهم، ولكنَّ الخطأ من طبيعة البشر.

## المطلب الثاني: تكامل المستوى الدلالي مع المستوى الصوتيّ:

إنَّ ممَّا تميَّز به استعمال القرآن الكريم للألفاظ جاءت التناسب أتمَّ المناسبة وأكملها مع جرسها وأصواتها فكانت دالَّة على معنى لم يدلَّ عليه غيرها، وتحمل بين طيَّاتها دلالات إشارة وإيماء إضافة إلى دلالتها المركزيَّة، وسنتناول بإذن الله فيما يأتي أمثلة لذلك:

### ❖ القيمة التعبيريَّة للصوت:

تتميَّز اللغة العربية بدقَّة أسمائها للأشياء، وبثرائها اللغويِّ الذي لا تدانيها في لغة أخرى، وبجمال ألفاظها ومعانيها. وعلاقة الصوت باللغة العربية علاقة قويَّة، فقد عبَّرت اللغة العربية بدقَّة عن أنواع الصوت وقوَّته وحدَّته وتدفُّقه. وتتميز هذه الدقَّة بكون اللفظ يدلُّ على الصوت نفسه، والصوت يتجلى فيه اللفظ ذاته، بحيث يستخرج الصوت من الكلمة، وتؤخذ الكلمة منه، وهذا من باب مطابقة الألفاظ للمعاني بما يشكل أصواتها، فتكون أصوات الحروف على سمت

(١) روح المعاني: ٨/١٣٦.

الأحداث التي يراد التعبير عنها، فقدرة اللغة العربية على التعبير عن أي شيء سواء كان مادياً أو معنوياً غير محدود، كما أنَّ التعبير عن الأسماء الدقيقة للأصوات المختلفة يأتي من قدرتها على تمييز الأصوات ومعرفة مصادرها وانواعها وأسمائها، وقد تناول اللغويِّون والمعجميِّون العرب المسلمون هذه الظواهر وبيَّنوها أدقَّ تبيين، ولا يزال الدارسون العرب يواصلون جهود أسلافهم، ويكمل الآخر ما بدأ الأوَّل، ومن الأمثلة على القيمة التعبيريَّة للصوت:

١- الصوت الأقوى للمعنى الأقوى، فكلَّ زيادة في قوَّة الصوت وجهره تستلزم قوَّة في الدلالة، وارتقاء في المعنى، وتلك واحدة من أبرز الخصائص الصوتية للغة القرآن الكريم، ولغة الدين الحقّ، التي يدقُّ فيها الالتحام بين الصوت والدلالة، والعكس بالعكس، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[1]، فقوله ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: «أي: تُزْعِجُهُم وتُقْلِقُهُم، فهذا في معنى تَهُزُّهُم هزّاً، والهمزة أخت الهاء، فتقارَبَ اللفظانِ لتقارب المعنَيَيْنِ، وكأنهم خَصُّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزِّ»[2]، فدلَّ الفعل "تؤزّ" على تَحريكهمْ تَحْريكاً شَديداً، لأنَّ الأَزَّ: الْهَزُّ وَالاسْتِفْزَازُ الْبَاطِنِيُّ، مَأْخُوذٌ مِنْ أَزِيزِ الْقِدْرِ إِذَا اشْتَدَّ غَلَيَانُهَا. فشَبَّهَ اضْطِرَابَ اعْتِقَادِهِمْ وَتَنَاقُضَ أَقْوَالِهِمْ وَاخْتِلَاقَ أَكَاذِيبِهِمْ بِالْغَلَيَانِ فِي صُعُودٍ وَانْخِفَاضٍ وَفَرْقَعَةٍ وَسُكُونٍ.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[3]، فالنَّضْحُ:

---

(١) سورة مريم: ٨٣.

(٢) الخصائص: ١٤٨/٢.

(٣) سورة الرحمن: ٦٦.

هو رَشُّ الْمَاءِ ولِكُلِّ مَا رَقَّ: نَضْحٌ النَّضْخُ بالخَاءِ المعجمة. يقال: غَيْثٌ نَضَّاخٌ: غَزِيرٌ. وَعَيْنٌ نَضَّاخَةٌ: كَثِيرَةُ الْمَاءِ. وهو أَقْوَى مِنَ النَّضْحِ بِالْحَاءِ الَّذِي هُوَ الرَّشُّ[1]، فاستعمل صوت الخاء في "**نضَّاختان**" للدلالة على الكثرة فالخاء أقوى من الحاء، لذلك كان معنى الكلمة، أقوى من "النضح" الذي يكون رشّاً رقيقاً.

٢- الصوت الأضعف للمعنى الأضعف: لقد استعمل القرآن الكريم الألفاظ التي فيها أصوات قويَّة للدلالة على أفعالٍ قويَّة، كما استعمل الألفاظ التي فيها أصوات أقلُّ قوَّة للدلالة على فعلٍ أضعف من الأوَّل، ف كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[2]، ولاشك أن السيِّدة مريم رضي الله عنها لم يكن لها من القوَّة وهي في حال الولادة فقال: "**هزي**"، فجاء الفعل بصوت الهاء، وهو صوت ضعيف خفيٌّ للدلالة على معنى مناسب للمقام التي كانت فيه السيِّدة مريم رضي الله عنها وهي في حال وضع الحمل.

٣- اسم الفعل الصوت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾[3]، قال ابن عاشور: «"**أفّ**" اسم فعل دالّ على الضجَر، وهو منقول من صورة تنفس المتضجّر لضيق نفسه من الغضب. وتنوين "أف" يسمى تنوين التنكير والمرَاد به التعظيم، أي: ضجراً قوياً لكم»[4]. وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفخ

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٤٣٨/٥.

(٢) سورة مريم: ٢٥.

(٣) سورة الأحقاف: ١٧.

(٤) التحرير والتنوير: ١٠٤/١٧.

الإنسان ليزيله، فالصوت الحاصل هو "**أف**"، وهو كلمة تنقلب بجرسها من اسم فعل إلى اسم صوت، فالفاء وما فيها من طرد النفس من الصدر حكاية للرفض وإرادة التخلُّص من الموقف وصاحبه، فلفظ "**أف**" فيه من الدلالة طبيعية ما يدعم دلالته العرفية، فهو يدلُّ بجرسه على ما تدلُّ عليه بوضعه، وهذا متأتٍّ من صوت الفاء الذي يجمع مع جريان النفس ضمَّ الشفتين بخلاف صوت الهاء الذي ربما يستعمل في الغرض نفسه فيقال: "**أُه**"، لكنَّه وإن شارك الفاء في صفة الهمس فهو يخالفه بأنَّه أضعف منه، وأخفى في النطق، فلا يؤدِّي ما يؤدِّيه الفاء إلا إذا جاء معه الواو فيصير "**أُوه**"، فلا يؤدِّي ما يؤدِّيه الفاء في هذا السياق، ولَّما في صوت الهاء من الضعف والخفاء وانفتاح الشفتين مع جريان النفس خلال النطق به فيكون معنى الرفض فيه والضجر أضعف من معنى "**أُفّ**" الذي هو أدلُّ على المعنى المراد من "**أُه**"، وأخصر من "**أُوه**"، فأتى في تمام وكمال ما بعدهما تمام ولا كمال. والله تعالى أعلم.

ومن هذا يتبيَّن ضعف نظريَّة الترادف المحض في اللغة العربيَّة، فاختلاف التشكيل الصوتي للألفاظ يتبعه بالضرورة اختلاف في الدلالة، ولو كان هذا الاختلاف في حدود ضيقة وربما خفيّة. والله تعالى أعلم.

### ❖ تعدُّد استعمال الصيغ للمادَّة الواحدة:

ومن أمثلة هذا النوع مادَّة "**صرخ**": فقد وردت لها في القرآن الكريم استعمالات بصيغ متعدِّدة بحسب السياق، والدلالة المقصودة، وهذه الصيغ هي:

أ- "**يصطرخ**" في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ

وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1]، فمادَّة صرخ أُصَيلٌ يدلُّ على صوتٍ رفيع. من ذلك الصُّراخ، يقال صَرَخ يَصرُخ، وهو إذا صوّت. ويقال الصَّارِخ: المستغيث، والصارخ: المغيث، ويقال بل المُغيث مُصرِخ[2]، ويتبيَّن لنا من البناء الصوتيّ للكلمة الذي يوحي بأن "الصراخ" قد بلغ ذروته، والاضطراب قد تجاوز مداه، والصوت العالي الفظيع يصطدم بعضه ببعض، فلا أذن صاغية، ولا نجدة متوقعة، فقد وصل اليأس أقصاه، والقنوط منتهاه، فالصراخ في شدة إطباقه، وتراصف جرسه، من توالي الصاد والطاء، وتقاطر الراء والخاء، والترنُّم بالواو والنون يظهر جرس هذا "الاصطراخ" المدوي "والاصطراخ: على وزن "افتعال"من الصراخ، وقد قلبت التاء طاءً لتناسب الصاد الساكنة قبلها، وإنَّما يفعل ذلك لتخفيف اللفظ، والتيسير في النطق، فجيء بحف التاء الطاء الذي يجمع بعضاً من خصائص الصاد، وبعضاً من خصائص الدال، فهو يتوافق مع الصاد في الاستعلاء والإطباق، ويتوافق التاء في المخرج[3].

ب- "**مصرخ**" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[4]، فالْمُصْرِخُ الْمُغِيثُ، ومَعْنَاهُ: مَا أَنا بِمُغِيثِكُمْ[5]، والآية تدلُّ

(١) سورة فاطر: ٣٧.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: مادَّة (صرخ): ٢٧٣/٣.

(٣) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٤١٠/٤.

(٤) سورة الرعد: ٢٢.

(٥) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صرخ): ٣٣/٣.

على البراءة المتناهية، والإحباط التام، والصوت المجلجل في الدفع، فلا يغني بعضهم عن بعض شيئاً، ولا ينجي أحدهما الآخر من عذاب الله، ولا يغيثه مما نزل به، فلا إنقاذ ولا خلاص ولا صريخ من هذه الهوة، وتلك النازلة، فلا الشيطان بمغيثهم، ولا هم بمغيثيه.

ت- "**صريخ**" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]، فالصريخُ: الْمُغيثُ، وَالصَّرِيخُ الْمُسْتَغيثُ أَيضاً، وهو مِنَ الأَضداد. وَالصَّرِيخُ: يَكُونُ "فَعَيْلاً" بِمَعْنَى "مُفعِل" مِثْلَ "نَذِيرٍ" بِمَعْنَى "مُنْذِرٍ" وَ"سَمِيعٍ" بِمَعْنَى "مُسْمِعٍ"[2]، ولَمَّا كان الوعيد بالإغراق، فهذا يعني الانقطاع التامَّ عن محاولة النجاة، بانقطاعه عن محيطه، وانقطاع النفس عنه، لذلك عبَّر عنه بأخفِّ صيغة من مادَّة صرخ، فقال جلَّ وعلا: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، وجرس كلمة "صريخ" الذي يخفت فيه الاستعلاء، ويغلب عليه استفال الياء ليوحي بانقطاع سبل النجاة عنهم، وخفوت قواهم، فيا له من موقف خاسر، وجهد بائر، فلا سماع حتى لصوت الاستغاثة، ولا إجارة مما وقعوا فيه.

ث- "**يستصرخه**" في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾[3]، فـ"الاسْتِصْرَاخُ" يعني: الاسْتِغَاثَةُ، و"صَرَخَ فُلانٌ يصرخُ صُرَاخاً" إِذا استغاث فقال: وا غَوثاهْ وا صَرْخَتاهْ[4]، فالكلمة في الآية تدلُّ

(١) سورة يس: ٤١-٤٤.
(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صرخ): ٣/٣٣.
(٣) سورة القصص: ١٨.
(٤) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صرخ): ٣/٣٣.

على طلب النجدة في حالة من الفزع، ومحاولة للإنقاذ في حالة من الرهب، والاستعانة على العدو بما يردعه عن الإيقاع به، بأن يَصِيحُ بِموسى عليه السلام مِنْ بُعْدٍ[1]، وما ذلك إلا نتيجة خوف نازل، وفزع متواصل، وتشبث بالخلاص، وأصل "يستصرخ"، أي: يستغيث برفع الصوت من الصراخ وهو في الأصل الصياح، ثم تجوز به عن الاستغاثة لعدم خلوها منه غالباً وشاع حتى صار حقيقة عرفية وقيل: معنى يستصرخ يطلب ازالة صراخه[2].

وقد جاءت كلمة "**يستصرخه**" في الآية الكريمة منسجمة أكمل الانسجام ومتناسبة أتمَّ التناسب مع كلمة "**استنصره**" التي تشاركها في أكثر أصواتها فالصاد ومع ما فيه من الاستعلاء والإصباق، والراء وما فيه من تكرير، وتفخيم، وصيغة الطلب "الألف والتاء والسين في بداية الفعل "**استنصره**" يقابلها الصيغة نفسها متمثِّلة بـــ"الياء، والتاء، والسين، في الفعل "**يستصرخه**" لتدلّ على أنَّ "**الاستنصار**" الذي سبق كان في حالة شديدة لكنَّها ليس بشدَّة حالة اليوم التي وصل الحال به أن "**يستصرخه**".

### ❖ فكّ التضعيف:

أ- كبّ: جاءت هذه المادة "كبّ" في القرآن الكريم، وهي تعني: جَعْلُ ظَاهِرِ الشَّيْءِ إِلَى الأَرْضِ[3]، أي: نكسه على وجهه كما في قوله تبارك: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]، أي: كبوا فيها على

(١) ينظر: تفسير البغويّ: ١٩٨/٦.
(٢) ينظر: روح المعاني: ٥٧/٢٠.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٣/٢٠.
(٤) سورة النمل: ٨٩-٩٠.

وجوههم منكوسين[1]، فلا إنقاذ ولا خلاص ولا إخراج، والوجه أشرف مواضع الجسد، وهو يهوي بشدة فكيف بباقي البدن، وكما أنَّهم تنكَّبوا الهدى، وأشاحوا عنه بوجوههم فهم يجزون به كبّاً لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار[2].

وَعُدِّيَ الْكَبُّ فِي هَذِه الآيَة إِلَى الْوُجُوه دُونَ بَقِيَّة الْجَسَد وَإِنْ كَانَ الْكَبُّ لجَمِيعِ الْجِسْمِ لأَنَّ الْوُجُوهَ أَوَّلُ مَا يُقْلَبُ إِلَى الأَرْضِ عِنْدَ الْكَبِّ كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ[3]: الطويل

وَأَضحى يَسُحُّ الماءُ عَنْ كُلِّ فَيقَةٍ يَكُبُّ عَلى الأَذقانِ دَوحَ الكَنَهْبَلِ

وَهَذَا مِنْ قَبِيلِ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾[4]، فأسند الفعل إلى ما يصيبه أوَّلاً[5].

و"**الإكباب**" جعل وجهه متِّجها بالنظر إلى الأرض، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[6]، فالمُكِبُّ: هو الرجل الكَثِيرُ النَّظَر إِلى الأَرض. ومنه جاءت "مُكبّاً" في هذه الآية المباركة[7].

وأمَّا "الكبكبة" بفكِّ التضعيف: وَالْكَبْكَبَةُ: هي أَنْ يَتَدَهْوَرَ الشَّيْءُ إِذَا أُلْقِيَ فِي هُوَّةٍ حَتَّى يَسْتَقِرَّ، فَكَأَنَّهُ تَرَدَّدَ فِي الْكَبِّ[8]، فهي تحمل التكرير

---

(١) ينظر: روح المعاني: ٣٧/٢٠.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٦٦٩/٥.

(٣) ديوانه: ٢٤.

(٤) سورة الأَعْرَاف: ١١٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ٥٣/٢٠.

(٦) سورة الملك: ٢٢.

(٧) ينظر: لسان العرب: مادَّة (كبب): ٦٩٦/١.

(٨) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: (كب): ١٢٤/٥.

والتضعيف لدلالة "الكبِّ" قال الله تعالى وتقدَّس: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾[1]، فَكُبْكِبُوا فيها، أَيْ كُبْكِبَت الأَصْنَامُ فِي جَهَنَّم. وَمعنى "**كُبْكِبُوا**" كُبُّوا فِيهَا كَبّاً بَعْدَ كَبٍّ؛ فَإِنَّ كُبْكِبُوا مُضَاعَفُ كُبُّوا بالتَّكْرِيرِ وَتَكْرِيرُ اللَّفْظِ مُفيدٌ تَكْرِيرَ الْمَعْنَى مثْلُ: كَفْكَفَ الدَّمْعَ، وَنَظِيرُهُ فِي الأَسْمَاءِ: جَيْشٌ لَمْلَمٌ، أَيْ كَثِيرٌ، مُبَالَغَةٌ فِي اللَّمِّ، وَذَلِكَ لأَنَّ لَهُ فِعْلاً مُرَادِفاً لَهُ مُشْتَملاً عَلَى حُرُوفِه وَلَا تَضْعِيف فِيهِ فَكَانَ التَّضْعِيفِ فِي مُرَادِفِه لأَجْلِ الدَّلَالَةِ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي مَعْنَى الْفِعْلِ[2].

ب- **زحزح**: هذه المادَّة تدلُّ عَلَى الْبُعْدِ. يُقَالُ: زُحْزِحَ عَنْ كَذَا، أَيْ: بُوعِدَ[3].

وقد استعملت في القرآن الكريم بهذا المعنى، قَالَ اللهُ تبارك وتَعَالَى: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ**﴾[4]. أي: بعد يومئذ عن نار جهنم وأصل الزَّحْزَحَةُ تَكْرِيرُ الزَّحِّ، وَهُوَ الْجَذْبُ بسرعة وعَجَلَة، وقد أريد هنا المعنى اللازم، وَهُوَ مُضَاعَفُ زَحَّهُ عَنِ الْمَكَانِ إِذَا جَذَبَهُ بعَجَلَة، ليبيِّن لنا أنَّ الَّذي يَهُمُّ بمَوَاقعهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة؛ لِمَا فِي نَفْسِه مِنَ الشَّوَائِب الَّتِي تَجْذِبُ إِلَيْهَا، فَيُنَحَّى عَنْهَا فِي كُلِّ مَرَّة بِغَلَبَةِ تَأْثِيرِ حَسَنَاتِه الْمُضَاعَفَةِ عَلَى سَيِّئَاتِه، إِلَى أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَائِزاً فَوْزاً عَظِيماً[5].

---

(١) سورة الشعراء: ٩١-٩٥.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١٥٢/١٩.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: (زحزح): ٧/٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٨٥.

(٥) ينظر: تفسير المنار: ٢٢٢/٤، وروح المعاني: ١٤٦/٤، التحرير والتنوير: ١٨٨/٤.

ولو نظرنا إلى كلمة "**زُحْزِحَ**" إلى أصواتها وما فيها من تكرير وجدنا معناها يبين بجرسها! وكأنما للنار جاذبية تشدُّ إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلاً قليلاً ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة.. فقد فاز..

فهو موقف بين حركة وشدٍّ وجذب! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته. فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس الإنسان- حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة- يظل أبداً مقصراً في العمل.. إلا أنْ يدركه فضل الله؟ بلى! وهذه هي الزحزحة عن النار حين يدرك الإنسان فضل الله، فيزحزحه عن النار![1].

وَإِنَّمَا جُمِعَ بَيْنَ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ، مَعَ أَنَّ فِي الثَّانِي غُنْيَةً عَنِ الأَوَّلِ، لِلدَّلالَةِ عَلَى أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ يَشْتَمِلُ عَلَى نِعْمَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ، وَنَعِيمُ الْجَنَّةِ[2].

### ❖ تسمية الشيء بأسماء متعدِّدة:

ومن أشهر أمثلة هذا النوع أسماء يوم القيامة فقد وردت له أسماء عديدة خاصَّة في الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم أجزاء "المفصَّل"[3] لوجدناها تركِّز كلُّها على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١/٥٣٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٤/١٨٨-١٨٩.

(٣) المفصَّل: يبدأ من سورة ق إلى سورة الناس آخر سور القرآن الكريم. ينظر: البرهان في علوم القرآن: ١/٢٤٥. الإتقان في علوم القرآن: ١/٢١٩.

نبات وحيوان. وعلى ذكر يوم القيامة وأهواله ومشاقِّه وعظمة ما فيه من الموقف والهلع والفزع، فقد تكرَّرت فيه أسماء يوم القيامة بألفاظ مختلفة لكلٍّ دلالة خاصَّة مع انتمائها كلِّها في حقل دلاليٍّ واحد وهو يوم القيامة، فهذه الألفاظ هي: الواقعة، والحاقَّة، والتغابن، والقيامة، **والساهرة**، والطامَّة، والصاخَّة، والغاشية، والقارعة. ومواقف الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في أسلوب يقرع ويذهل ويزلزل كشدَّ أحوال القيامة الكونيَّة في ضخامتها وهولها.

واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة. مع التقريع بها والتخويف والتحذير. وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين[1].

وظاهرة أخرى جديرة بالعناية و التلبث، وهذا الأسلوب: تسمية الكائن الواحد، والأمر المرتقب المنظور، بأسماء متعددة ذات صيغة واحدة، بنسق صوتي متجانس، للدلالة بمجموعة مقاطعة على مضمونه، وبأصواته على كنه معناه، وما يلحظ في هذه الأسماء جميعها هي كلُّها بصيغة اسم الفاعل "فاعلة" كما أنَّها لم تخل من أحد الأصوات المستعلية.

"الْغاشِيَة" تسمى القيامة هذا الاسم: "الْغاشِيَة"، أي: الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها[2].

الْقَارِعَةَ اسْمُ فَاعِلٍ يُوصَفُ بِهِ فِي الْحَقِيقَةِ امْرَأَةٌ تَقْرَعُ أَحَداً بِالْمقْرَعَة، وَفِي الْمَجَازِ دَاهِيَةٌ تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا، وَالْقَرْعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ضَرْبُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ -كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ- وَأَخَصُّ مِنْهَا "الصَّاخَّةُ"[3].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٨٠١/٦.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٣٨٩٦/٦.

(٣) ينظر: تفسير المنار: ٢٩٥/٩.

والصاخة: صيحة تصخ الأذن أي: تطعنها فتصمها لشدتها، ومنه سميت القيامة. ويقال: كأنَّ في أذنه صاخة، أي: طعنة[1].

والطامَّة: هي الَّذي يَكثُر حَتَّى يَعْلو: قَدْ طَمَّ وَهُوَ يَطِمُّ طَمّاً. وَجَاءَ السيلُ فطَمَّ كلَّ شَيْءٍ أَيْ عَلاهُ، وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ: فَوْقَ كلِّ شَيْءٍ طامَّةٌ، وَمِنْهُ سُمِّيت الْقِيَامَةُ طَامَّةً؛ لأَنَّها تَطُمُّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

فإذا وقفنا عند الطامَّة، فهي القيامة تطم على كل شيء، وإليه ذهب الزجاج فقال: الطامَّة هي الصيحة التي تطم على كل شيء، وتُسمَّى الداهية التي لا يستطاع دفعها: طامَّة[2].

وممَّا يلحظ أنَّ هذه الأسماء كلّها تنتمي إلى حقل دلاليٍّ واحد كما سبق، وتشترك في دلالة مركزيَّةٍ واحدة، ولكنَّه في الوقت نفسه ينفرد كلُّ اسم منها بدلالة خاصَّة لا يؤدِّيها غيره، وهذه الدلالة مستمدَّة من أصواته وسياقه، وغير ذلك، فلو فَسَّرْناها جميعها بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَوَصَفْتَهُ بِالْقَارِعَةِ فِي سُورَتِهَا وَبِالصَّاخَّةِ فِي سُورَةِ عَبَسَ تَكُونُ النتيجة أَنَّنا عُرْضَةً لغَلْطٍ فِي التَّفْسِيرِ يُضيعُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مُرَادِ اللهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الأَلْفَاظِ. وَإِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ فِي هَذَا بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ بِالْعَرَبِيَّةِ، وكذلك الْمُتَرْجَمُ بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْلَى بِالْغَلَطِ؛ لأنَّهم اكتفوا بالدلالة العامَّة وبيان الحقل الدلالي الذي تنتمي إليه هذه الكلمات، وأغفلوا الدلالة الصوتيَّة والسياقيَّة لها[3]، مع أنّ الموافقة بين هذه الأسماء في الأصوات وصيغة البناء، لمعانيها في الدلالة على يوم القيامة، من أعظم الدلالات الصوتيَّة في الشدَّة والوقع والتكامل الصوتيِّ والدلاليِّ لمثل هذه الصيغة الحافلة.

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة (صخخ): ٣/٣٣.

(٢) ينظر: لسان العرب، مادَّة (طمم): ١٢/٣٧٠.

(٣) ينظر: تفسير المنار: ٩/٢٩٥.

فهو واقع يقرعك بقوارعه، وحادث يثيرك برواجفه.. الصدى الصوتي، والوزن المتراص، والسكت على هائه أو تائه القصيرة تعبير عما ورائه من شؤون وعوالم وعظات وعبر ومتغيرات في: الواقعة، والقارعة، **والآزفة، والراجفة، والرادفة**، والغاشية، وكل معطيك المعنى المناسب للصوت، والدلالة المنتزعة من اللفظ، و تصل مع الجميع إلى حقيقة نازلة واحدة.

بمتابعة أولئك جميعاً يتجلى العمق الصوتي في المراد كتجليه في الألفاظ دلالة على الرجيف والوجيف، والتزلزل والاضطراب، وتغيير الكون، وتبدل العوالم: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1].

فتعاقبت معالم الراجفة و الرادفة مع معالم الواقعة والقارعة والآزفة، وتناسبت دلالة الأصوات مع دلالة المعاني في الجرس والوزن.

### ❖ دلالة المدِّ:

تقدَّم الكلام في الفصل السابق عن المدِّ وحروفه وأسبابه، وأنواعه، وما يعنينا في هذا الفصل هو علاقة المدِّ بالدلالة، والأمثلة على ذلك، فقد اهتمَّ المتأخِّرون بهذا الأمر أكثر ممَّن سبقهم، وذكروا أنَّ: السبب المقتضي لزيادة المد قسمان: لفظي ومعنوي، فاللفظي وقوع حروف المد قبل همزة أو سكون، والمعنوي: هو مد التعظيم قصد المبالغة في النفي... والسبب المعنوي أضعف من اللفظي، إذا لم يعاضده سبب آخر كما في مثل: "لا إله إلا الله"[2]، وكلام علماء القراءة والتجويد منصب على أنواع المد المترتبة على السبب اللفظي.

---

(١) سورة إبراهيم ﷺ: ٤٨.

(٢) ينظر: النشر: ١/٣٤٤.

فالمدّ لم يكن مدا صوتيا لا مساس له بالدلالة، بل هو ظاهرة صوتيَّة لها في جزء من أحواله ارتباط بالمعنى، وما يوحيه من دلالة. فهو يوحي بالتفخيم أو إثارة الانتباه للكلمة الممدودة لدى القارئ والمستمع، ومن أشهر أمثلته:

مدُّ التعظيم: وهو مدُّ ألف لفظ الجلالة "**الله**" ومقدار مدِّه ألف تامَّة[1]، وهذا لم يكن بسبب همز، أو سكون، بل السبب فيه الدلالة على تعظيم هذا الاسم الكريم، ولذلك سُمِّي مدُّ التعظيم.

ومن شواهده أيضاً: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[2]، فالصاخَّة بناء صوتيٌّ يمتاز بتوجُّه الفكر نحوه في تساؤل، واصطكاك السمع بصداها المدوي، وأخيراً بتفاعل الوجدان معها مترقباً: الأحداث، والمفاجئات، والنتائج المجهولة.

فهو يستدعي نسبة عالية من الضغط الصوتي، والأداء الجهوري لسماع رنَّته، ممَّا يتوافق نسبياً مع إرادته في جلجلة الصوت، وشدَّة الجرس، كلُّ ذلك ممَّا يوضع مجموعة العلاقات القائمة بين اللفظ ودلالته في هذا الصوت المغرق في المدِّ، فإذا أضفنا إلى ذلك دلالته المركزيَّة في القرآن الكريم، وهو يوم القيامة، خرجنا بحصيلة علمية تنتهي بمطابقة الشدَّة الصوتيَّة للشدَّة الدلاليَّة بين الصوت والمعنى المركزيّ.

ولو عدنا إلى معجم الكلمة لوجدنا أنَّ "الصاخَّة" مأخوذة من الصخُّ: وهو الضَّرْبُ بِالْحَدِيدِ عَلَى الْحَدِيدِ، وَالْعَصَا الصُّلْبَةِ عَلَى شيءٍ مُصمت، فهو: صَخٌّ وصَخيخٌ، وَقَدْ صَخَّت تصخُّ؛ تَقُولُ: ضَرَبْتُ الصَّخْرَةَ بِحَجَرٍ فَسَمِعْتُ لَهَا صَخَّةً. والصاخَّةُ: الْقِيَامَةُ، وَبِهِ فَسَّرَ أَبو عبيدَة قَوْلَهُ تَعَالَى: فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ،

(١) ينظر: معجم الصوتيَّات: ١٧٥.

(٢) سورة عبس: ٣٣.

وَقَالَ أَبو إِسحاق: الصَّاخَّةُ هِيَ الصَّيْحَةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْقِيَامَةُ تصُخُّ الأَسماعَ أَي تُصِمُّها فَلا تَسَمَعَ إِلا مَا تُدْعَى بِهِ للإِحياء. وَتَقُولُ: صخَّ الصوتُ الأُذُنَ يَصُخُّها صَخّاً، فأما أن تكون الصاخَّة اسم فاعل من صخَّ يصخُّ، وإما أن تكون مصدراً وقال أبو اسحق الزجاج: الصاخة هي الصيحة تكون فيها القيامة تصخ الأسماع، أي: تصمها فلا تسمع.

والصاخَّة: هي الداهية العظيمة من صخَّ بمعنى أصاخ، أي: استمع، والمراد بها النفخة الثانية ووصفت بها؛ لأنَّ الناس يصخون لها[1].

وقال الخليل: هي صيحة تصخُّ الآذان صخّاً أي: تصمُّها لشدَّة وقعتها، ومنه أخذ الحافظ أبو بكر بن العربي قوله الصاخة هي التي تورث الصمم، وأنَّها لمسمعة، وهو من بديع الفصاحة[2] كقول أبي تمَّام[3]: الطويل

أَصَمَّ بِكَ النَّاعِيْ وَإِنْ كَانَ أَسْمَعَا فَأَصْبَحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

وقال الراغب الصاخَّة: هِيَ الضَّرْبَةُ ذَاتُ الصَّوْتِ الشَّدِيدِ يَصُخُّ الْمَسَامِعَ أَيْ يَقْرَعُهَا حَتَّى يُصِمَّهَا أَوْ يَكَادَ، أَوِ الَّذِي يَضْطَرُّهَا إِلَى الإِصَاخَةِ وَالإِصْغَاءِ[4].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾[5].

---

(١) ينظر: لسان العرب، مادَّة: (صخخ): ٣٣/٣.

(٢) ينظر: روح المعاني: ٤٨/٣٠.

(٣) ديوانه: ٣١٨/٢.

(٤) ينظر: تفسير المنار: ٢٩٥/٩.

(٥) سورة عبس: ٣٣-٤٢.

فهذه هي خاتمة المتاع. وهذه هي التي تتفق مع التقدير الطويل، والتدبير الشامل، لكل خطوة وكل مرحلة في نشأة الإنسان. وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع. مع الذي جاء يسعى وهو يخشى. والذي استغنى وأعرض عن الهدى. ثم هذان هما في ميزان الله.

فالصاخة بجرسها العنيف النافذ، تكاد تخرق صماخ الأذن، وهو يشقُّ الهواء شقّاً، حتى يصل إلى الأذن صاخّاً ملحّاً! وهو يمهِّد بهذا الجرس العنيف للدلالة على شدَّة هول ما بعده من فرار المرء وانسلاخه من ألصق الناس به: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن هذه الصاخَّة تمزِّق هذه الروابط تمزيقاً، وتقطع تلك الوشائج تقطيعاً.

فدلالة أصوات "**الصاخَّة**" على هول يوم القيامة، من أعظم الدلالات الصوتيَّة في الشدَّة والوقع وتكامل البناء الصوتيِّ مع البناء الدلاليِّ لمثل هذه الصيغة الحافلة.

والهول في هذا الموقف هول نفسي بحت، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها. فلكلِّ نفس شأنها، وكلٌّ لديه الكفاية من الهمِّ الخاصِّ به، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد فكلٌّ يقول: نفسي نفسي: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

فالدلالات الكامنة وراء هذه العبارة وفي طياتها دلالات عميقة عظيمة، فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير، للدلالة على الهمِّ الذي يشغل الحس والضمير: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ذلك حال الخلق جميعاً في هول ذلك اليوم.. إذا جاءت الصاخة.. ثم يأخذ في بيان حال المؤمنين وحال

الكافرين، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها، فهي تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر، أو هي قد عرفت مصيرها، وتبين لها مكانها، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ فأمَّا هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة، ويغشاها سواد الذل والانقباض. وقد عرفت ما قدمت، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته[1].

### ❖ دلالة الصوائت القصيرة:

الصوائت القصيرة لها أثر كبير في بنية اللغة وتحديد دلالة مفرداتها، سواءٌ على صعيد بنيتها التشكيلية، أو على صعيد حالتها الإعرابية. كما إن الفتح أو الضم أو الكسر، وكذلك السكون الذي يعتور الكلمة، بنسب متفاوتة، من شأنه تشكيل ملامح الكلمة، وتحديد صورتها النطقية، بسبب الصفات التي تُميّز كلاً منها.

وتسمية الحركات فيها شيء من خصائصها، ومن ثم كانت التسمية التقليدية المعروفة، الفتحة والكسرة والضمة [2].

وفي القرآن الكريم نماذج أكثر من أن تُحصَى، تحمل لنا إشارات دلاليَّة

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/٣٨٣٤.

(٢) ينظر: علم الأصوات، كمال بشر: ٤٢١.

مستوحاة من الصوائت القصيرة -الحركات- سواء في بناء المفردة خاصَّة، أو في السياق عامَّة، وسنذكر بإذن الله فيما يأتي شواهد على هذه الظاهرة:

أ- "الحَياة" للدنيا، واستعمال كلمة "الحَيَوَان" للآخرة. جاء في قوله عَزَّ من قائل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فلأنّ الدنيا دارُ لَهوٍ ولعب وزوال، عُبِّر عنها بالحياة. ولأنّ الآخرةَ دارُ كرامة وعزٍّ وبقاء، عُبِّر عنها بالحَيَوَان.

والعلة في استعمال القرآن كلمةَ "الحَيَوَان" للدار الآخرة، دون استعمال كلمة "**الحياة**" التي أطلقها على الدار الدنيا، مع إن كلاً منهما مصدر للفعل: حَيِيَ، يَحيَى، هو أنّ كلمة "الحَيَوَان" صيغة مبالغة بالألف والنون، وفي بنائها زيادةُ اقتضت زيادة في المعنى، وهذه الزيادة لم تكن في بناء "الحياة"؛ لأنَّ وزن "فَعَلان" يدلُّ على الامتلاء والحركة والاضطراب، ولَّما كانت الحياةُ حركة، كما أنّ الموتَ سكون، فمجيئه على بناءٍ دالٍّ على معنى الامتلاء والحركة، مبالغة في معنى الحياة، أي: إنَّ الحياة الكاملة هي حياة الآخرة؛ ولذلك اختيرت صيغة "الحَيَوَان" على صيغة "الحَياة" في هذا الموضع المقتضي للمبالغة[2]، فمن خصائص العربيَّة أنَّها يقابل فيها بتوالي حَرَكات المثال توالي حَرَكات الأفعال[3]، وهو ما يتناسب مع الحياة المستمرة الدائمة الخالدة في الآخرة، و لم يُذكر لفظ "الحَيَوَان" في القرآن إلا وصفاً لها. والله أعلم.

ب- إنّ صيغة الكلمة من ناحية الحركات، إضافةً إلى حالتها الإعرابية في

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٢) ينظر: الكشّاف: ٤٦٣/٣.

(٣) ينظر: الخصائص: ١٥٢/٢.

التركيب فيهما دلالة على المعنى، ما ورد في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1]، فقد دعا نبيُّ الله نوحٌ عليه الصلاة والسلام ربَّه أن ينصرَه على قومه الذين كذبوه، فما لبثت أبوابُ السماءِ أن انفتحتْ على مصراعيها، فانْهَمَرَ منها مطرٌ غزيرٌ وغدت الأرضُ كلُّها عيوناً متفجرةً بالماء: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

فكلمة "**فَفَتَحْنَا**" تبدأ بثلاث فَتَحَات متوالية، تنسجم تماماً مع فعلِ فتحِ أبوابِ السماء. ويقوِّي الاحساس بفعل الفتح انتهاء هذه الكلمة بفتحة رابعة مختومة بحرف مدٍّ منفصل، يُمَدُّ بمقدار أربع أو خمس حركات[2]، يوحي بمقدار ذلك الفتح الذي وَسِعَ السّماءَ كلَّها. ثم تتوالى بعد ذلك حركةُ الفتح على كلمة "أَبْوَابَ" المنصوبة، ثم "السَّمَاءِ"، مع ملاحظة الحرف الأخير منهما المردوف بألف المد المرتكز على حركة الفتح، وما يوحي من الاستطالة والسّعة والامتداد، ثم تُختَم الكلمةُ الأخيرة "السَّمَاءِ" بحرفٍ مكسور إيذاناً بنزول الماء منها، لِتَتَوالَى بعدها حركةُ الكسر في كلمتي: "بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ" وتختمان بها. ولا يخفى ما بين حركة الكسر المتكرِّر، وبين فعل نزول الماء من السماء إلى الأرض من تلاؤم وتناغم، من شأنه تحويل حاسة السمع في القارئ والسامع إلى حاسة إبصار، خاصةً ما يوحي به تنوين الكسر في نهاية الكلمتين الأخيرتين من شدة الانهمار، وما يدل عليه حرف الراء في آخر "مُنْهَمِرٍ" من التكرار، بسبب خاصيته التكريرية.

---

(١) سورة القمر: ٩-١٢.

(٢) يسمَّى هذا المدُّ بالمدِّ الجائز المنفصل. وقد مرَّ بيانه في الفصل الثالث فلينظر.

أمَّا في قوله تعالى بعده: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ فيلحظ فيه عودة حركة الفتح من جديد لتتناسب مع حركة تفجُّر الماء من الأرض بحركة عكسية هذه المرة، من الأسفل إلى الأعلى. وقد جاء المد بالألف في: "فَجَّرْنَا"، و"عُيُوناً" ليوحي بتلك الحركة التصاعدية للماء. والله أعلم.

### ❖ النبر والتنغيم:

يعدُّ النبر والتنغيم من أساليب الجمال الصوتي بما يؤديانه من سرعة دخول المعنى للقلب، لأنَّ الأذن تتلذَّذ به وترتاح للصوت المعبِّر، وأيضاً فإن القارئ الجيد يمكنه التعبير عن المعنى بصوته شدَّة ورقَّة، وارتفاعا وانخفاضا. إلا أنَّ النبر والتنغيم في اللغة العربيَّة لا يعدوان كونهما نغمات في الأداء، لا دخل لهما في بناء الكلمة، أو تحديد الدلالة الصوتيَّة للفظ على خلاف بعض من اللغات التي تعدَّهما "صويتين" يدخلان البناء ويقوم عليهما تحديد الدلالة الصوتيَّة للفظ.

النبر يُعنى عادة بمتابعة العلو في بعض الكلمات؛ لأنَّه لا يسم وحدة صوتيَّة واحدة، بل منظومة من الوحدات الصوتيَّة[1].

**والتنغيم**: يعني عادة بمتابعته صوت المتكلم في التغيرات الطارئة عليه صوتياً بما يلائم توقعات النفس الإنسانية للتعبير عن الحالات الشعورية واللاشعورية.

وكان المستشرق الألماني الدكتور براجشتراس قد وقف موقف المتحير حيناً، والمتسائل حيناً آخر، من معرفة علماء العربية بمصطلح النبر، فهو لم يعثر على نص يستند عليه، ولا أثر يلتجئ إليه في إجابة العربية عن هذا الأمر[2].

ولو عدنا إلى حقيقتهما فهماً:

---

(١) ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرغ: ١٨٧.

(٢) ينظر: التطور النحوي، براجشراسر: ٤٦.

١- **النبر**: وهو مصطلح صوتي يعني الضغط على مقطع من مقاطع الكلمة ليجعله بارزا وواضحا في السمع أكثر من غيره من مقاطع الكلمة. وله وظيفة دلالية تتحدد وفق نوع النبر:

أ - فإن كان نبراً كلمياً أظهر التباين الدلالي في السياق.

ب- وإن كان نبراً مقطعياً أي على مستوى المقطع أظهر التباين في الكلمة.

٢- **التنغيم**: وهو أن يعطي المتكلم العبارة نغمات معيّنة تنجم نفسيا عن عاطفة يحسها وفكريا عن معنى يختلج في ذهنه وعضويا عن تغيّر في عدد الهزات التي تسري في حنجرته، فالتنغيم تظهر فائدته جلية في التفريق بين الجمل الخبريَّة والاستفهاميَّة والتعجُّبيَّة ونحوها وكذلك في الإفصاح عن خواصِّ الأبواب النحوية كالتحذير والإغراء والنداء والندبة والاستغاثة وغيرها. فيزيد في سرعة فهمه وتحليله من خلال النظر في هيئته الصوتيّة وما يلفها من ظواهر تطريزية مميزة لها.

ولم تخل المصادر العربيَّة من ذكرهما، وتحديد وظيفتهما في اللغة العربيَّة من غير زيادة على ما أعطيا من مكان في اللغة العربيّة فقال الدركزليّ: «قال بعض المحققين: ينبغي أن يقرأ القرآن على سبع نغمات؛ فما جاء من أسمائه تعالى وصفاته فالتعظيم والتوقير، وما جاء من المفتريات عليه فبالإخفاء والترقيق، وما جاء على ردّها فبالإعلان والتفخيم، وما جاء في ذكر الجنة فبالشوق والطرب، وما جاء في ذكر النار والعذاب فبالخوف والرهب، وما جاء في ذكر الأوامر فبالطاعة والرغبة، وما جاء من ذكر المناهي فبالإبانة والرهبة».

إذا كانت الأصوات المسموعة مزعجة أو تشتت الانتباه بأي شكل عن معنى الكلمات لن يفهم الناس المعنى المقصود، فماذا لو أنَّ صوت مذيع في نشرة الأخبار ناعم ويساعد على الاسترخاء والنوم؟ ماذا سيحدث لو كان

يستخدم لكنة ريفية أو غريبة؟ كيف ستستجيب لمثل هذه المواقف؟ إن الأفراد يتعرفون على الأصوات قبل أن يعرفوا معنى الكلمات المستعملة.

لذلك على القارئ والمتكلِّم أنْ يظهر الإشارات اللفظية والصوتية بالشكل الذي يعطي المستمع فرصة أفضل لتلقِّي رسالتين بشكل جيِّد في عمل واحد ووقت واحد وجهد واحد؛ فإنَّ التواصل الصوتيِّ الجيِّد من شأنه أن يساعد على جذب اهتمام المتلقِّي وتقديم الرسالة بأوضح وأدق شكل ممكن.

وفي غير هذا الإطار لم يحظ كلٌّ من "**النبر والتنغيم**" بكثير من الشرح والتفصيل، والسبب في ذلك أنَّهما ليسا "صويتين" في اللغة العربية[1]، وهما لا يعدوان كونهما نغمتين، وهذا ما يظهر من تعريف التنغيم عند الأوروبيين بأنَّه: «عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية أو الإيقاعات في حدث كلامي معين»[2]، فهو تعريف الفضفاض ليس بجامع ولا مانع، لأن تتابع النغمات والإيقاعات بإضافتها إلى الحدث الكلامي تختلف في هبوطها وصعودها نغماً وإيقاعاً، فهي غير مستقرة المستويات حتى صنف مداها عند الدكتور تمَّام حسان إلى أربعة منحنيات: «مرتفع وعال ومتوسط ومنخفض»[3]، فعلى هذا ليس بالإمكان قياس مسافة التنغيم ليوضع له رمز معين، أو إشارة معلمة عند العرب، وليس هذا لنقص أو عجز في اللغة العربيَّة الواسعة الغنيَّة، بل هو ظاهرة على تطوُّر اللغة، وسعتها فهي ليست بحاجة إلى تغيير درجة الصوت للكلمة لتنتقل من حقل دلاليٍّ إلى آخر، وإنَّنا نقول مطمئنِّين بأنَّ كلاً من النبر والتنغيم ظاهرة على فقر اللغة في موادِّها المعجميَّة، وعلامة على بدائيَّة اللغة، فكلَّما تطوَّرت اللغة، واتسعت مادَّتها، وزاد غناها المعجميُّ تخلَّت وابتعدت عن النبر وعن التنغيم.

---

(١) ينظر: البحث اللغوي عند العرب: ١٢٠.

(٢) أسس علم اللغة، ماريو باي: ٩٣.

(٣) اللغة العربية معناها ومبناها: ٢٢٩.